مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

DOI: 10.54240/2318-014-001-005

مدينة طُبنة في كتابات الجغرافيين والرحالة خلال العصر الوسيط

City of Tobna in the writings of geographers and travelers During the Middle Age

اسم ولقب المؤلف المرسل: فضيل بوالصوف- Boussouf Fodil صص103- 115
الدرجة والعنوان المهني: دكتوراه تاريخ وسيط، جامعة أم البواقي
البريد الإلكتروني: boussouf.fodil@univ-oeb.dz

تاريخ استقبال المقال: 2023/12/04. تاريخ المراجعة: 2024/01/07.. تاريخ القبول: 2024/04/29..

الملخص باللغة العربية: لا نعلم عن طُبنة قبل الفتح الإسلامي سوى أنها كانت مجرد قلعة بيزنطية حصينة اضطلعت بمهمة الدفاع عن إفريقية من الهجمات الزناتية، لكن أهميتها الاستراتيجية لم تكن تخفى عن الفاتحين المسلمين بدءا بعقبة بن نافع وصولا إلى موسى بن نصير، الذي افتتحها بشكل نهائي وألحقها بولاية المغرب، وخلال فترة زمنية وجيزة تحولت إلى مدينة عامرة، ثم عاصمة لإقليم الزاب والأوراس، ولم يكن يفوقها- حينئذ- سوى مدينة القيروان.

تتبّع الجغرافيون والرحالة مراحل تطورها الحضاري، وقدموا لنا نصوصا في وصف قدرات المدينة على توفير احتياجات الساكنة من منتجات زراعية وأدوات صناعية، انطلاقا من تنوع مواردها الزراعية من جهة، ووقوعها على خط القوافل التجارية من جهة أخرى.

ومع ذلك لم تستطع هذه المدينة الحفاظ على تفوقها الحضاري، وأخذ نجمها في الأفول تدريجيا، فأحجمت النصوص الجغرافية عن ذكرها نهاية العصر الوسيط.

وعليه تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مدينة طبنة كحاضرة إسلامية كبرى في بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي مباشرة، من خلال تتبّع تطورها العمراني انطلاقا من كتابات الجغرافيين والرحالة خلال العصر الوسيط، قصد الوقوف على الدور الحضاري الذي اضطلعت به هذه المدينة، مع التركيز على أبرز التغييرات التي طرأت عليها، والقطيعة التي

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

أحدثتها مع الفترة القديمة، وصولا إلى فهم أعمق للعوامل التي جعلت منها مدينة هامشية في نهاية العصر الوسيط لصالح مدن جديدة حلّت محلها من حيث الأهمية الحضارية.

الكلمات المفتاحية: طبنة، الحاضرة، الزاب، العمران، الرحالة، الجغرافيون، المغرب الأوسط، العصر الوسيط.

ABSTRACT: Prior to the Islamic conquest, we know little about Tobna except that it was a fortified Byzantine fortress tasked with defending Africa from the raids of the Zenata. However, its strategic importance was not lost on the Muslim conquerors, from Okba ibn Nafi to Musa ibn Nosseyr, who opened it and incorporated it into the province of Maghreb. In a short period of time, it transformed into a thriving city, then became the capital of the Zab and Aurès region, second only to the city of Kairouan.

Geographers and travelers have traced the stages of its civilizational development, providing texts describing the city's ability to meet the population's needs for agricultural products and industrial tools, leveraging its agricultural resources and its location on trade routes.

However, this city failed to maintain its civilizational superiority, gradually declining in importance, with geographical texts ceasing to mention it by the end of the Middle Ages.

This study aims to shed light on Tobna as a major Islamic city in the Maghreb after the Islamic conquest, by tracing its urban development through the writings of geographers and travelers during the Middle Ages. The goal is to understand the civilizational role this city played, focusing on the significant changes it underwent and the discontinuity it introduced with the cultures of the ancient period, ultimately providing a deeper understanding of the factors that made it a marginal city by the end of the Middle Ages, in favor of new cities that replaced it in terms of civilizational importance.

Keywords: Tobna, City, Zab, urbanism, Travelers, Geographers, Central Maghreb, Middle Age.

المقدمة: عرفت الدراسات التاريخية المهتمة بتاريخ مدن وحواضر المغرب الإسلامي تطورا كبيرا في السنوات الأخيرة خاصة بعد استخدام عدة مقاربات منهجية حديثة واستغلال النصوص والوثائق التاريخية والبقايا الأثرية، لكن تبقى الدراسات المنوغرافية لمدن وحواضر المغرب الأوسط قليلة مقارنة بما تشهده من اهتمام وتطور في دول الجوار، وهي الحالة التي تنسحب على مدينة طبنة باعتبارها أكبر حواضر المغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

سنحاول من خلال هذه الدراسة تتبّع التطور العمراني لمدينة طبنة كحاضرة إسلامية كبرى في منطقة الزاب والأوراس، انطلاقا من كتابات الجغرافيين والرحالة خلال العصر الوسيط، بغرض الوقوف على دورها الحضاري، مع التركيز أيضا على التغيرات التي طرأت عليها والقطيعة التي أحدثتها مع ثقافات الفترة القديمة، مرورا بالعوامل التي جعلت منها مدينة هامشية في أغلب فترات نهاية العصر الوسيط، مستعينين بالمصادر الجغرافية الموثوقة.

يروم هذا المقال إلى الغوص عميقا في نظرية ظهور وأفول المدن في بلاد المغرب الأوسط، والنبش في تاريخ مدينة إسلامية وفق منظور النصوص الجغرافية التي تتبعت تطورها منذ مرحلة الازدهار وحتى دور الأفول والاندثار.

ولنا أن نتساءل في هذه الحالة عن عوامل بروز طبنة كحاضرة كبرى في إقليم الزاب والأوراس، ومسببات التراجع في هذا الدور حتى أضحت مدينة هامشية لا تكاد تَبِين؟

وتسلحنا في معالجة هذه الإشكالية بالمنهج الوصفي والمنهج التحليلي، مع الاستعانة بشيء من المنهج الاستقصائي، ومحاولة الوقوف على النصوص المتناثرة في المصادر وإعادة تركيبها، لإعطاء صورة واضحة عن هذه المدنية، والدور الحضاري الذي اضطلعت به، والإضافة التي قدمتها لتاريخ المنطقة بشكل عام.

1- الفتح الإسلامي لمدينة طبنة: تقع مدينة طبنة القديمة على مقربة من مدينة بريكة الحالية[1]، ما بين وادي بيطام ووادي بريكة، على السفح الغربي للهضبة التي تطل على سهل طبنة، كان لهذه المدينة دور كبير في الدفاع عن إفريقية من الهجمات الزناتية من ناحية الغرب، وفي الوقت ذاته كانت قلعة بيزنطية حصينة أيام الفتح الإسلامي لبلاد المغرب زمن القائد عقبة بن نافع[2]، وهذا قد يفسر لنا سبب اهتمامه بهذه المدينة وإدراكه لأهميتها الإستراتيجية كبوابة شرقية لمنطقة المغرب.

إنّ كثرة الروايات وتناقض بعضها في هذا الباب، يدفعنا إلى الاعتقاد أنّ العقود الأولى من الفتح الإسلامي لبلاد المغرب كانت عصيبة على الفاتحين، لما واجهوه من مقاومة عنيفة من

1 تفصل بينهما مسافة ثلاثة كيلومترات فقط.

2 محمد نجيب خلف- **أوصاف الجزائر في كتابة أبي عبيد البكري**- دراسة منشورة ضمن كتاب تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر- نشر المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954- الجزائر- 2007م- ص 241.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

السكان، الذين لم تكن قد ترسّخت بعد أقدامهم في الدين الجديد ولم يطمئنوا إلى المسلمين، وهذا ما قد يفسر خروج هذه المدن عن طاعتهم بمجرد ارتحالهم عنها أو استضعاف وُلاّتها.

بقيت طبنة تمارس دورها في التصدي للفاتحين المسلمين حتى افتتحها موسى بن نصير، وهنا فقط بدأ الجغرافيون وأصحاب كتب المسالك والممالك المشارقة في الإشارة إليها، وكان اليعقوبي أولهم حيث يصف طبنة بأنها مدينة الزاب العظمى[1]، ما يعني أنها تحولت بعد فتحها إلى مدينة كبيرة وحاضرة بلاد المغرب الأوسط، ويبدو أن النمو السريع الذي عرفته هذه الحاضرة، هو الذي جعلها مستقرا للعديد من الأجناس والقوميات المختلفة من عرب وعجم وأفارقة وروم وبربر، إضافة إلى الجند الذين استُقدِموا من خراسان، وقد أرسل بهم خلفاء بني العباس لدعم الجيوش الموجودة ببلاد المغرب والتصدّي لثورات الخوارج.

لم يقدّم أيّ جغرافي أو رحّالة وصفا دقيقا لمدينة طبنة كما فعل البكري في كتابه المسالك والممالك، ومن المعلوم أنه لم يُنشر من هذا الكتاب -باديء الأمر- سوى القطعة المتعلقة ببلاد المغرب[2]، حتى تمكن كل من "أدريان فان ليوفين" و"أندري فيري" من نشره كاملا تقريبا في جزأين منذ ثلاثة عقود معتمدين على عشر نسخ خطية[3].

ذكر البكري هذه المدينة بعدما عرّف بالمسالك المؤدية إليها، وقال هي مدينة كبيرة مما افتتح موسى بن نصير، وصل سبيها إلى عشرين ألفا، وإذا سلّمنا بصحة هذا الخبر الذي تواتر أيضا عند كثير من المؤرخين والجغرافيين، فهذا يعني أنها كانت مدينة كبيرة من حيث تعداد سكانها بمقياس ذلك العصر، لكن الغريب في كلام البكري، أنه أردفه بهرب القائد البربري كسيلة[4] بعد هذا الفتح.

1 أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي- **كتاب البلدان**- طبعة ليدن- 1860م- ص131.

2 طُبع الكتاب بعناية البارون دي سلان بالجزائر سنة 1857م، وطبع ثانية بعد مقابلته مع أربع نسخ خطية في باريس سنة 1911م. أنظر: إليان سركيس- **معجم المطبوعات العربية**- ج1- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- د.ت- ص579.

3 البكري أبو عبيد- **كتاب المسالك والممالك**- تح: أدريان فان ليوفين وأندري فيري- ترجمة المقدمة: سعد غراب، الدار العربية للكتاب- المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م- مقدمة المحقق- ج1- ص 23.

4 اليعقوبي- **كتاب البلدان**- ص131.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

من الصعوبة بمكان التسليم بدقة هذا الكلام، ذلك أنّ موسى بن نصير وُلي على بلاد المغرب بعد حسان بن النعمان، ونحن نعلم أنّ الوالي الذي سبق حسان هو زهير بن قيس البلوي، الذي كانت له سجالات وحروب مع كسيلة انتهت بمقتل هذا القائد البربري الذي سبق وأن غدر بعقبة بن نافع وقتله[1].

نلتمس للبكري عذرا في هذه الكبوة، فقد عهدناه جغرافيا متمرسا لا مؤرخا، كان يدقق فيما يكتب، ويقارن بين النصوص الجغرافية ويختار ما يعتقد أنه صحيح، ومع أنه لم يزر بلاد المغرب حسب ما نعلم، لكنه نقل عن جغرافيين سابقين منهم: محمد بن يوسف الورّاق، وسمع من أفواه العلماء والتجار الذين زاروا بلاد المغرب وجابوا أرض الأندلس طولا وعرضا.

يصف البكري طبنة بأنها مدينة كبيرة، وهذا الوصف قل ما يطلقه على حواضر بلاد المغرب الأوسط، التي تتميز بأنها مدن متوسطة الحجم في أكثر الأحوال، ويُنسِب بناء سورها إلى المنصور بن أبي الدوانيف، لكنه يعود فيقول[2]: "ويقال إنّ الذي بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلّبي المعروف بهزَارمَرد[3]"، والصحيح أن المدينة خربت وأُعيد بناؤها مرات عديدة بسبب الحروب الطاحنة التي عرفتها المنطقة خلال مرحلة الفتح، حيث تبادل الفاتحون العرب والبربر السيطرة عليها.

2- التطور العمراني للمدينة: تتطلب الدراسات الأثرية جهدا كبيرا وإمكانات ضخمة هي غير متوفرة اليوم، والدراسات في هذا الباب قليلة ونادرة، وعليه سيكون الاعتماد على المصادر المكتوبة ووصف الجغرافيين والرحالة لمدينة طبنة، وسنحاول عبر مقارنة النصوص ببعضها وتحليلها، الوصول إلى جمع فصول الصورة لتكون واضحة قدر الإمكان.

---

1 يرى موسى لقبال أن اسم كسيلة الوارد في هذا النص الذي ذكره البكري هو لقائد آخر غير الأمير المشهور الذي قتل عقبة بن نافع. راجع: لقبال موسى- **طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى**- مجلة الأصالة- العدد 60-61- أوت وسبتمبر 1978م- ص88.

2 البكري- **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** وهو جزء من كتاب المسالك والممالك- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة- د.ت- ص.50

3 هزارمرد: أصلها فارسية، وهو لقب يطلق على الرجل القوي الذي يعدل في قوته ألف رجل. أنظر: النويري- **نهاية الأرب في فنون الأدب**- تح: عبد المجيد ترحيني- دار الكتب العلمية- بيروت- د.ت- 42/24. راجع أيضا: الرقيق القيرواني- **تاريخ أفريقية والمغرب**- تح: محمد زينهم محمد عزب- ط1- دار الفرجاني- القاهرة، 1414هـ/1994م- (مقدمة التحقيق)- ص13.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

لا شك أن تاريخ المدينة موغل في القدم، فهي مدينة رومانية بالأساس كانت تتبع ولاية نوميديا، وتعاقب عليها الوندال والبيزنطيون، لذلك نجد إشارات هامة إلى قِدَمها في كتابات الجغرافيين والرحالة، وغالبا ما يبدأ وصفهم لها بأنها مدينة قديمة أو أزلية من صنع الأوَل أو القدماء، لكن ما يهمنا هنا، هو التطور العمراني الذي عرفته في ظل حكم المسلمين لبلاد المغرب.

إن وصف البكري لطبنة بالمدينة الكبيرة يحمل دلالة واضحة على تطورها العمراني وكثرة بنائها، فهي مدينة محصنة بسور من الطوب، وبها قصر وأرباض، ويبدو أنها كانت عاصمة لمقاطعة إدارية تابعة للقيروان، وليس صعبا الوصول إلى هذا الاستنتاج في ظل وجود نص صريح جاء به البكري نقلا عن المؤرخ والجغرافي الأندلسي القيرواني محمد بن يوسف الوراق[1]، يقول فيه: " إنّ قصر طبنة قديم أوّليّ كبير جليل بُني بالصخر عليه أزاج كثيرة ينزله العمال" [2]، مما سمح لمدينة الوالي أو عامله أن تكون في غاية الحصانة والامتناع إذا أرادت أن تقوم بالدور المنوط بها، لذلك نجدها المعقل الأخير لكثير من الفاتحين بعد اشتداد المحن عليهم وحصار البربر لهم [3].

صحيح أنّ محمد بن يوسف الوراق نشأ بالقيروان، ومع ذلك لا يوجد ما يؤكد أنه قد زار مدينة طبنة، لكن وصفه لها دقيق للغاية حتى يُخيّل إليك أنه أحد ساكنيها، فهو يذكر أنّ قصرها ملاصق لسورها من جهة القبلة، ويستطرد في وصف أبواب المدينة الخمسة قائلا: "ولمدينة طبنة من الأبواب باب خاقان مبني بالحجر عليه باب حديد وهو سرّي، وباب الفتح غربي باب حديد أيضا، وبينهما سماط يشق المدينة من الباب إلى الباب، وباب كتامة جوفي وخارج المدينة بإزاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة بناه عمر بن حفص"[4]، ويفهم من هذا النص أنّ الوالي العباسي لم يكن يأمن على المدينة فسعى

1 حول حياة الوراق وكتاباته راجع: حسين مؤنس- **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**- ط2- مكتبة مدبولي- القاهرة- 1986م- ص ص73-76.

2 البكري- **المغرب**- ص50.

3 ابن خلدون عبد الرحمن- **تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**- تح: خليل شحاده- دار الفكر- بيروت- 1421هـ/2000م- 246/4.

4 البكري- **المغرب**-ص ص 50-51. حول بناء سور المدينة، راجع: ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**- 246/4.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

لتحصينها بتجديد بناء سورها، كما يستنتج أيضا أنّ طبنة قد بلغت في عهده مبلغا عظيما وأضحت عمارتها مُشيّدة، ما تطلّب إقامة أبواب جديدة كمداخل للمدينة حتى بلغ تعدادها خمسا.

من الصعوبة بمكان تقدير مساحة مدينة طبنة انطلاقا من هذه المادة الشحيحة والمتناثرة بين ثنايا المصادر الجغرافية والتاريخية، لكنّ الأكيد أنها كانت أكبر مدن المغرب الأوسط خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، فقد ترددت عبارة أنّه لا توجد من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها في أكثر من مصدر جغرافي.[1]

أسهم آل المهلّب[2] وُلاّة أبي جعفر المنصور في تحقيق الاستقرار في بلاد المغرب بعد الانتصارات التي حققوها على الخوارج الصّفرية والإباضية، وعرفت إفريقية والمغرب الأوسط في كنفهم فترة استقرار وإعمار انعكس بشكل مباشر على ازدهار العمارة وانتعاش الاقتصاد في مدينة طبنة، التي ظلت إلى ذلك العهد تحتفظ بمكانتها كعاصمة لإقليم الزاب[3] بلا منازع، ويبدو أنّ الزيادة السريعة في سكانها وتوافد عناصر جديدة عليها جعلها تستنفذ كلّ الأراضي الشاغرة داخل الأسوار ما استدعى إنشاء ربض تابع لها.[4]

1 البكري- **المغرب**- ص51. أنظر: مجهول- **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**- تح: سعد زغلول عبد الحميد- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد- د.ت. ص172.راجع أيضا: الحميري محمد بن عبد المنعم - **الروض المعطار في خبر الأقطار**- تح: إحسان عباس- ط3- مكتبة لبنان- بيروت- 1984م- ص387.

2 كان أولهم عمر بن حفص بن قبيصة بن المهلب المعروف بهزامرد، وتعاقبت أسرته على حكم إفريقية باسم الخليفة العباسي، منهم: يزيد بن حاتم ثم ابنه داوود، وبعد داوود عمه روح بن حاتم، فنصر بن حبيب المهلبي، وكان آخرهم الفضل بن روح بن حاتم في عهد هارون الرشيد. حول تاريخ ونسب آل المهلب راجع: ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي- **جمهرة أنساب العرب**- تح: عبد السلام هارون- ط5- دار المعارف- القاهرة- 1982- ص370. البلاذري أبو العباس أحمد بن يحي- **فتوح البلدان**- تح: عبد الله أنيس الطباع- مؤسسة المعارف- بيروت- 1407هـ/1987م- ص326. ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد - **الكامل في التاريخ**- تح: أبو الفداء عبد الله القاضي- ط1- دار الكتب العلمية- بيروت- 1407هـ/1987م- 5/196-198. مؤنس- **معالم في تاريخ المغرب والأندلس**- ص ص81-88.

3 إقليم الزاب: أحد أقاليم نوميديا القديمة، يمتد من تخوم المسيلة غربا إلى بجاية شمالا، ومن بلاد الجريد شرقا إلى تقرت وورقلة جنوبا، ويشمل حاليا القسم الشمالي الشرقي من الجزائر. راجع: الحسن الوزان- **وصف إفريقيا**- تر: محمد حجي ومحمد الأخضر- ط2- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1983م- 2/138. مارمول كربخال - **افريقيا**- تر: محمد حجي وآخرون- نشر دار المعارف- الرباط- 1408-1409هـ/1988-1989م- ج3-ص167.

4 خلف- **أوصاف الجزائر**- ص242.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

أما من الناحية الاقتصادية، فيبدو أنّ المدينة كانت قادرة على تأمين احتياجاتها ذاتيا، ونلمس ذلك بوضوح في نصوص البكري التي ينقلها عن الورّاق، إذ يؤكد وجود سور مضروب على فحص فسيح يكون بمقدار ثلثي المدينة من جهة باب الفتح، ونظن أنّ هذا الفحص كان يُستغل في توفير الغذاء لساكنة المدينة زمن الحروب والحصار، وفي غياب النصوص والشواهد التي تؤكد ذلك بصورة قاطعة، لا يسعنا سوى الاستناد إلى الإشارات الأخرى للورّاق حول وفرة المياه بالمدينة، ما يجعلنا نميل إلى هذا الاعتقاد[1].

أشار العديد من الجغرافيين والرحالة إلى وفرة المياه بالمدينة للاستخدام الزراعي أو لتلبية حاجات السكان اليومية، فهذا ابن حوقل يؤكد أنّ أكثر غلاّت المدينة من السقي، يُزرعُ فيها الكتان وجميع الحبوب فيها غزيرة، وهي وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر النَّعَم.[2] ويذهب المهلّبي المعروف بالعزيزي الذي كان معاصرا لابن حوقل أبعد من ذلك، فيؤكد ما ذهب إليه صاحب كتاب صورة الأرض، ويضيف على ذلك أنّ المدينة كانت كثيرة البساتين والأهل والزروع وأكثر غلاّتهم القطن[3]، ويُؤيّده الإدريسي فيما ذهب إليه ويصف المدينة بأنها كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير.[4]

ويبدو لنا انطلاقا من الروايات السابقة، أنّ الماء على وفرته بالمدينة كان عزيزا عند سكانها والقائمين عليها، وإلاّ كيف نُفسّر إقامة صهريج من الماء داخل القصر لتخزين مياه وادي بيطام، وعليه نُشكّك في كون الوادي كان دائم الجريان حتى يُوصف بأنه نهر، وإنما كان واديا يفيض شتاءً، ويجفّ صيفا، ومع هذا كان الاعتماد عليه بشكل شبه كلي في توفير المياه اللازمة لري الأراضي الزراعية حتى انتشرت بين سكان المدينة مقولة: "بيطام بيت الطعام" لجودة الزرع ووفرة الإنتاج[5].

---

1 البكري- **المغرب**- ص51.

2 أبو القاسم بن حوقل- **صورة الأرض**- طبعة مصورة عن طبعة ليدن- دار صادر- بيروت- 1938م- 85/1.

3 العزيزي- **الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك**- تح: تيسير خلف- دار التكوين- دمشق- 2006- ص49.

4 الشريف الإدريسي- **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- 1422هـ/2002م- ج1-ص263.

5 البكري- **المغرب**- ص51. راجع أيضا: عبد النور قراوي- **طبنة ودورها الحضاري من الفتح حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي**- مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط غير منشورة- جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)- الجزائر- نوقشت سنة 2009م- ص195.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

إنّ قدرة المدينة على توفير المياه وسدّ احتياجاتها بهذه الصورة لهو أمر مثير للإعجاب، في بيئة شبه جافة نصيبها من الأمطار يسير، لكنها استطاعت رغم ذلك أن توصل المياه العذبة لساكنة المدينة ولنا في نصوص البكري ما يدعم هذا الرأي، ومنها قوله:" ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب" [1].

من المؤسف أنّ السبيل الوحيد لتأكيد هذه الأوصاف ميدانيا هو القيام بدراسات أثرية جادة تبدأ بإماطة اللثام عن وجه المدينة القديمة بإزالة ملايين الأطنان من الأتربة القابعة فوقها اليوم.

لا شك أن الوضعية الزراعية المزدهرة للمدينة انعكست بصورة إيجابية على التجارة داخلها، فهي تملك أسواقا عديدة زيادة على ما يحتويه السماط حسب البكري دائما، ومع أنّ المصادر التي بين أيدينا قد أهملت -أثناء وصفها للمدينة- التعرض لطبيعة النشاط التجاري الممارس من حيث أنواع السلع المتداولة تصديرا أو استيرادا، وكمياتها أو قيمتها التجارية، ومناطق التبادل التجاري، فإن الإدريسي كان استثناءً في ذلك، حيث يقدّم لنا نصا موجزا لكنه بالغ الأهمية إذ يقول: "وبها (أي طبنة) صنائع وتجارات وأموال لأهلها متصرّفة في ضروب من التجارات، والتمر بها كثير، وكذلك سائر الفواكه"[2].

وانطلاقا من تحليل مضمون هذا النص، يتبين لنا أنّ المدينة كانت تشتهر بالعديد من الصناعات، والتجارة كانت مزدهرة بفضل السلع المصنّعة محليا، حيث يتم بيعها في أسواق المدينة، أما عبارة وأموال لأهلها متصرّفة في ضروب من التجارات، فهي توحي بأنّ النشاط التجاري كان عمود الاقتصاد هناك، ولعلّ تجارة التمر كانت من أبرز المنتوجات التي تجلب من مدن الزّاب الأخرى مثل بسكرة وطولقة وغيرهما.

ومهما يكن من أمر، فالمدينة استطاعت بفضل تنظيمها المحكم وتحكّمها الجيّد في مواردها الطبيعية وفي مقدمتها الماء أن تحقق اكتفاءً ذاتيا وتلبّي احتياجاتها المختلفة، لذلك

1 البكري- **المغرب**- ص51. راجع أيضا: مجهول- **كتاب الاستبصار**- ص172. الحميري- **الروض المعطار**- ص387. أبو الفداء- **كتاب تقويم البلدان**- تح: شارل شفير- طبعة درسدن- 1846م- ص105.

2 الإدريسي- **نزهة المشتاق**- ص263.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

كانت قادرة على الصمود في وجه الحصار أشهرا عديدة، ما أهّلها لتكون ثاني أكبر الحواضر بإفريقية بعد القيروان، وأكبر مدن إقليم الزّاب.

3- تراجع الدور الريادي لمدينة طبنة: لم يكن بمقدور المدينة أن تحافظ على تفوقها بين مدن إقليم الزاب، وأخذ دورها يتراجع تدريجيا وشيئا فشيئا، من عاصمة لهذا الإقليم إلى مدينة تتبع له، وليس من السهل الوقوف على الأسباب الحقيقية لهذا التراجع، وتراجع المدينة من الريادة إلى التقهقر، فهل لذلك علاقة بالصراع الذي ظهر بين سكان المدينة وعبّر عنه ابن حوقل بأسلوب أدبي بديع حين قال:" فحدث بينهم البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض، وأتى على نِعمهم فصاروا بعد السّعة والدّعة إلى الضّيق والذّلّة والصّغار والشّتات والقلّة مشرّدين في البلاد مطرّحين في كل جبل وواد، وبقيتهم صالحة "[1]. لكنّ هذا النص على جماليته اللغوية لا يغني من الأمر شيئا، فابن حوقل لم يحدد لنا طبيعة هذا الصراع، ومن هم أطرافه، ولم يحاول أن يقرنه بحادثة واضحة أو معلم تاريخي شهير، لذلك بذلنا جهدنا بحثا في كتب التاريخ على ما يتوافق مع هذا الوصف فلم نعثر على شيء يستحق الذكر، لكنّ الثابت أنّ هذا الصراع – فيما لو صحّ- قد انعكس بصورة كبيرة على مكانة طبنة كمدينة من مدن الزاب والمغرب الأوسط، وأنّها أخذت تفقد وهجها وتحوّل عنها عدد من قاطنيها إلى مدن مجاورة، أو هاجروا نحو العراق والشام أو باتجاه الغرب نحو الأندلس[2]، ويبدو أنّ بداية هذا التراجع قد تزامن مع قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب منذ سنة 296هـ/909م.

---

1 ابن حوقل- **صورة الأرض**- 85/1.

2 من أشهر البيوتات الأندلسية بقرطبة، التي تعود أصولها إلى مدينة طبنة بيت بني الطبني الذي نسب لهذه المدينة، يتقدمهم أبو مضر محمد بن الحسين التميمي الطبني، وهو أصل بني طبنة في الأندلس، وفد على المنصور بن أبي عامر فاستوطن قرطبة، وكان له مكانة عند المنصور، ومن عقبه نجد: محمد بن يحي بن أبي مضر الطبني، وأبو مروان عبد الملك زيادة الله الطبني الشاعر والأديب واللغوي الذي بلغت سمعته الآفاق. حول بيت بني الطبني راجع: ابن سعيد الأندلسي- **المغرب في حلى المغرب**- تح: شوقي ضيف- ط4- دار المعارف- القاهرة- 1993م- 92/1، 206/1-207. أنظر أيضا: ياقوت الحموي- **معجم البلدان**- دار صادر- بيروت- د.ت- 21/4.
ومن المشاهير أيضا الذين انتقلوا عن طبنة واستقروا في بلاد المشرق نذكر: علي بن منصور الطبني، روى عن محمد بن مخارق، ومنهم أيضا: أبو محمد القاسم بن علي بن معاوية بن الوليد الطبني- حدّث بمصر عن ابن المقرئ- إضافة إلى محمد بن الحسين الطبني الجِمّاني الزابي- وأبو جابر يحي بن خالد السهمي الطبني- وأبو الفضل عطية بن علي بن عطية بن علي بن الحسن بن يوسف القرشي الطبني المعروف بابن لاذخان. راجع: السمعاني- **الأنساب**- تح: محمد عوامة- مكتبة ابن تيمية- القاهرة- د.ت- 212/8-213. ابن ماكولا- **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**- تح: عبد الرحمان بن يحي المعلمي اليماني- ط2- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة- 1993م- 263/5- 264.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

إنّ محاولة الربط بين الأوضاع الصعبة التي عرفتها مدينة طبنة منذ مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وبين ظهور بيوتات طبنية بالأندلس والمشرق لهي عملية محفوفة بكثير من المخاطر، ومع ذلك لا يمكن تجاهلها، لأنّ غياب الأمن وضيق الأفق يدفع بالناس إلى الهجرة والترحال بحثا عن الأمن والاستقرار، خاصة إذا كانوا من ميسوري الحال وقادرين على تحمّل تكاليف السفر.

ومهما يكن من أمر حول أسباب هجرة هذه العائلات، فإنّ المؤكد أنّ طبنة بدأت تتخلى عن ريادتها لإقليم الزاب لمدينة جديدة مستحدثة من بناء الدولة الفاطمية هي مدينة المسيلة[1] التي تبعد عنها بمرحلتين، وقد استحدثها علي بن حمدون الأندلسي بأمر من القائم بالله الفاطمي سنة 315هـ/927م وسمّاها المحمدية[2].

لقد ترجم الجغرافيون هذا التراجع بالاقتصار على وصف طبنة بمدينة الزاب كما فعل الإدريسي[3]، وأهملها الحسن الوزان ومارمول كاربخال فلم يعتدّا بها كإحدى مدن الزاب، واكتفيا بذكر مدن أخرى كانت إلى وقت قريب تابعة لها، وهذا يشير بشكل واضح إلى تحول طبنة إلى مدينة هامشية في عهدهما، أي في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

الخاتمة: في ختام هذه الدراسة التي أردت من خلالها التعريف بهذه المدينة المغمورة اليوم، ومحاولة العودة بها إلى ماضيها المشرق حين كانت عروس إقليم الزّاب بلا منازع، وتسليط الضّوء على دورها الحضاري في بلاد المغرب الأوسط، وما تركته لنا من تراث إنساني جزائري يستحق منا مزيدا من الاهتمام والتقدير.

ولعلنا بهذا الجهد البسيط نكون قد نبهنا إلى القيمة التاريخية والعمرانية لمدينة طبنة، والدور الذي اضطلعت به خلال الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وما بعده، ورغم أنّ طبنة فقدت مكانتها لصالح مدينة المسيلة المستحدثة ودارت عليها دورة الحضارة كما يقول ابن خلدون،

---

1 قال فيها المقدسي: والزاب مدينتها المسيلة. أنظر: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**- ط3- مكتبة مدبولي- القاهرة- 1411هـ/1991م- ص221.

2 العزيزي- **الكتاب العزيزي**- ص51. ابن حوقل- **صورة الأرض**- 87/1. أبو الفدا- **تقويم البلدان**- ص105. ابن خلدون- **تاريخ ابن خلدون**- 51/4.

3 **نزهة المشتاق**- ص263. راجع أيضا: أبو الفداء- **تقويم البلدان**، ص105.

مجلة عصور الجديدة- مجلة علمية محكمة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد14- العدد1 (ماي) 1445هـ/2024م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

فهذا لا يلغي قيمتها الحضارية، ولا يعني أنها لم تضف شيئا إلى الموروث الحضاري لبلاد المغرب الإسلامي بشكل عام.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م.
- البكري، كتاب المسالك والممالك، جزءان، تح: أدريان فان ليوفين وأندري فيري، ترجمة المقدمة: سعد غراب، الدار العربية للكتاب- المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.
- البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
- البلاذري، فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1407هـ/1987م.
- ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ت: عبد السلام هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1982.
- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، ط3، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.
- ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، طبعة مصورة عن طبعة ليدن، دار صادر، بيروت، 1938م.
- الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تح: محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الفرجاني، القاهرة، 1414هـ/1994م.
- ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، ج1، تح: شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- السمعاني، الأنساب، ج 8، تح: محمد عوامة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.
- العزيزي، الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تح: تيسير خلف، دار التكوين، دمشق، 2006.
- أبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، تحقيق ونشر: شارل شفير، طبعة درسدن، 1846م.
- ابن ماكولا، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ج 5، تح: عبد الرحمان بن يحيى المعلمي اليماني، ط2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1993م.
- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ت.
- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1411هـ/1991م.
- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 24، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، دار صادر، بيروت، د.ت.

- اليعقوبي، كتاب البلدان، طبعة ليدن، 1860م.
- الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.

2- المراجع: أولا: الكتب

- خلف محمد نجيب، أوصاف الجزائر في كتابة أبي عبيد البكري، دراسة منشورة ضمن كتاب تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، نشر المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007م.
- سركيس إليان، معجم المطبوعات العربية، ج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
- مؤنس حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1986م.
- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط9، دار الرشاد، القاهرة، 1428هـ/2007م.

ثانيا: الرسائل الجامعية

- قراوي عبد النور، طبنة ودورها الحضاري من الفتح حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط غير منشورة، جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)، الجزائر، نوقشت سنة 2009م.

ثانيا: المقالات:

- لقبال موسى، طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى، مجلة الأصالة، العدد 60-61، أوت وسبتمبر 1978م.